دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

ذهنية النهب والتخريب
جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار

د. حسن بودلال

دكتوراه التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

نصادف في واقعنا اليومي أو من خلال وسائل التواصل الاجتماعي الكثير من مظاهر العنف، مثل تخريب الحدائق والملاعب، ونهب شاحنات السلع المنقلبة في حوادث السير، وهي أفعال تبدو أنها من "غير هدف" ، ودون سبب واضح. تحاول هذه الدراسة، الحاملة لعنوان "ذهنية "النهب والتخريب" : جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار" ، الوقوف عند جذور هذا العنف الكامن، ورصد "تشكل ذهنية النهب والتخريب" عبر سيرورة الزمن، من خلال تتبع أشكال النهب والتخريب التي مارسها المخزن والقبائل، ومحاولة استجلاء الدوافع والغايات التي تقف وراءها، ثم كيف تحول النهب إلى "ظاهرة اجتماعية" ، وإلى "نمط عيش" ، في ظل قلة الأمن وضعف الإنتاج الاقتصادي، وكيف انزرع النهب والتخريب في ذهنية وسلوك الإنسان، حيث استمرت آثاره إلى حدود الحاضر. وقد توصلت الدراسة إلى أن الدولة لجأت إلى التخريب بدوافع وغايات مختلفة، استهدفت من جهة معاقبة القبائل العاصية من خلال حرمانها من وسائل الإنتاج وتكوين الثروة، كما استعانت بالآثار النفسية التي تخلفها مشاهد التخريب والتدمير من أجل تحذير القبائل التي تنوي التمرد من المصير الذي ينتظرها . وقد هدفت ممارسات التخريب في بعض الأحيان إلى الحصول على المواد الأولية، من أخشاب وأحجار وجوائز، بغرض إعادة استعمالها، نظرًا لقلتها من جهة، أو صعوبة نقلها نتيجة مشاكل النقل والتنقل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ يناير ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٢٤ فبراير ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

العنف؛ النهب؛ التخريب؛ المغرب؛ المخزن؛ القبائل؛ الإسبان؛ البرتغاليون

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.353906

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بودلال، "ذهنية النهب والتخريب: جذور العنف في مغرب ما قبل الاستعمار".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون: مارس ٢٠٢٤. ص ٦٣ – ٧٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hassanboudlal01@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخِية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

نصادف في واقعنا اليومي أو من خلال وسائل التواصل الاجتماعي الكثير من مظاهر العنف، مثل تخريب الحدائق والملاعب، ونهب شاحنات السلع المنقلبة في حوادث السير، وسرقة المحلات والأسواق المحترقة[١]، أو حتى بعض أشكال النهب التي تنسب لرجال السلطة أو أعوانها[٢]، وهي ظواهر تبدو للوهلة الأولى عصية عن الفهم، لكن التاريخ، والذي سعى في مرحلة من المراحل إلى تزعم مختلف العلوم الإنسانية[٣]، يعتبر-في نظرنا- قادر على خلخلة مضمرات هذه الظواهر، والنبش في جذورها، وتتبع خيوط تكونها واختراقها لغشاء الزمن. كما يعد البحث في هذه الظواهر "السلبية" منسجما مع الاتجاه الذي عبر عنه بعض المؤرخين[٤]، من ضرورة عدم الاقتصار على المواضيع ذات الصبغة "الإيجابية" بل وتتبع الظواهر "المؤلمة" في تاريخينا، لأن دراستها والنفوذ إلى أغوارها، كمين بكشف أسباب ومثبطات "التقدم" في تاريخ مجتمعاتنا، والوقوف عند مكامن العطب في تاريخنا، مقارنة بالقفزات الكبرى التي عرفها تاريخ الضفة المجاورة/ أوربا.

ويتأسس، كذلك، على التغيرات التي عرفها حقل التاريخ، إذ إن حقل الذهنيات شهد انبثاقه وازدهاره مع التوسع الكبير للتاريخ وانفتاحه على باقي العلوم، مع الجيل الثالث من مدرسة الحوليات[٥]، لذلك فإن الباحث في التاريخ لا يجد مناصا من الاستعانة بالعلوم المجاورة في إطار التلاقح المعرفي الشيء الذي يساعد على النفوذ إلى أعماق البنى الذهنية التي كانت تحكم المغربي في إطار علاقته بمجتمعه وبالطبيعة المحيطة به.

أولاً: الفاعلون في النهب

١/١-المخزن و"سياسة النهب والتخريب"

مارست مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب "سياسة النهب"، ففي العصر الوسيط، شكلت هذه السياسة أحد أهم الركائز التي استندت عليها الدولة والاقتصاد، فيما أسماه أحد الباحثين "بأسلوب الإنتاج الحربي"[٦]، إلى جانب مداخيل التجارة الصحراوية[٧]، لكن هذه الأخيرة، ومنذ القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، تدهورت مداخيلها، بفعل سيطرة القبائل المعقلية على الطرق التجارية الصحراوية، ووصول البرتغاليين إلى سواحل إفريقيا الغربية عقب حركة الاستكشافات الجغرافية، مما جعل المخزن يفقد جزءا مهما من مداخيل هذه التجارة التي كان يبني عليها توازناته المالية، وما زاد الطين بلة انقطاع الجهاد في الأندلس، والذي كان مصدرًا ماليًا مهمًا، ناجمًا عن الغنائم التي كان يجمعها المغاربة في حملاتهم العسكرية بإسبانيا[٨].

أمام هذه الوضعية المالية الخانقة، وفي ظل الحاجة الكبيرة إلى الموارد، لجأ المخزن إلى فرض مزيد من الضرائب، وهو ما شكل مناسبة لممارسة أشكال متنوعة من النهب من قبل أعوانه، حتى في أوقات الأزمات، إذ إن العمال والقواد والشيوخ كانوا لا يترددون في حجز ونهب الدواب الناجية من الجفاف[٩] أو الأقوات الباقية عقب المجاعات، بل كان المخزن في الكثير من الأحيان ما يستفيد من الأوبئة والمجاعات بحيث يستولى على تركة المتوفين دون وارث.

أسهم هذا التعسف الضريبي في إفقار الفلاحين، فحسب الحسن الوزان، الذي عاش وتجول في مختلف ربوع البلاد خلال القرن ١٠هـ/١٦م، فإنه لم يعد سوى القليل منهم من يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام[١٠]، مما كان يدفع السكان نحو العصيان والتمرد، فأسهم ذلك في انتشار حالة "السيبة"، وأجبرت المخزن على التدخل، ونهج أسلوب المحلات (الحملات العسكرية) لاستخلاص الجبايات، مع ما يرافق ذلك من أساليب العسف والنهب والتخريب والتي كانت تمتص ثروات السكان القليلة وتنهك قوى الإنتاج، ذاك أن المنصور السعدي (١٥٧٨-١٦٠٣م) عندما أوقع بأهل الغرب والخلط، "انتزع منهم الخيل والسلاح والمواشي والخيام، وتركهم يتكففون في القبائل ويسرحون ويحرثون بالخمس في تامسنا".[١١]

استُدمج النهب في المنظومة المخزنية، وأصبح يعبر عنه باصطلاحات كـ "الأكل"[١٢] أو "الرعي"[١٣]، ولم يعد وسيلة لجمع الموارد فقط، بل تحول إلى "سلاح" في يد السلطان لتطويع القبائل العاصية، إذ كان المخزن "يأكل" كل من سولت له نفسه الخروج عن طاعته، وكانت ثروة

القبيلة العاصية من حبوب ومواشي عرضة للنهب والتدمير، فعند حدوث ثورة بسوس، أرسل المنصور السعدي جيشا لسحقها، "فاكتسحوا السرح وانتسفوا الزرع وخربوا العمران ودمروا أرض المارقين تدميرا، حتى أذعن لهم جل قبائل السوس"[١٤]. وحينما أوقع إسماعيل العلوي (١٦٧٢-١٧٢٧م) بقبائل فازاز، "سبيت نساؤهم وأولادهم، وحيزت مواشيهم وأنعامهم وخيلهم، واستمر فيهم القتل والنهب ثلاثة أيام"[١٥]. وكان المخزن يهدف، من وراء ""سياسة النهب" هاته، إلى إضعاف القبيلة العاصية ودفعها للاستسلام، ولثني القبائل الأخرى عن أي تفكير في الخروج عن الطاعة[١٦].

كما كان النهب وسيلة لأداء "مستحقات" الجند، فقد كان الجيش المرافق لعبد الله بن إسماعيل في حملته على دكالة "لا يتعيشون إلا بالنهب"[١٧]، أو لمكافئة القبائل الموالية لقاء مشاركتها في الحملات العسكرية، حيث قامت قبائل الغرب بنهب أهل الساحل بين طنجة وتطوان، "فنهبوهم وحرقوا دشورهم واحتووا على مواشيهم"[١٨]، بأمر من سلامة بن محمد في إطار صراعه مع أخيه سليمان على عرش المغرب.

ولكن كثيرًا ما انقلب هذا "السلاح" على مستعمليه، فالقواد والعمال والشيوخ، الذين كانوا يشتغلون في العسف وتكديس الثروات، كثيرا ما كانوا يتعرضون للنهب من المخزن نفسه فيما يعرف "بالتتريك" أو "المصادرة"[١٩]، كما أن السلاطين أنفسهم كانوا معرضين للنهب من طرف منافسيهم على العرش، مثلما حدث في فترة الثلاثين سنة (بين١٧٢٧-١٧٥٧م) من الاضطرابات التي أعقبت وفاة إسماعيل، إذ قام عبد الله بالهجوم على دكالة التابعة لأخيه المستضيء، "ففر أهلها...واشتغلت العساكر بنهب الزرع من الأمراس، واستخراج الدفائن والهمائل، وتخريب القرى وقطع الأشجار... إلى أن فرغت العساكر من أمر دكالة ولم يبق بها ما يأكله الطير أو يتظلل به"[٢٠]. أما السلطان محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م) فلم يستثني ولده عبد الرحمان من هذا المصير فقد أغار على أملاكه ونهب ما فيها من "البقر والغنم والخيل والبغال"[٢١].

٢/١-الإسبان والبرتغاليون: النهب المنهج

أسهم تزايد قوة الدول المسيحية منذ هزيمة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، واشتداد قبضتها على البحر الأبيض المتوسط[٢٢]، إلى ارتفاع هجماتها البحرية التي استهدفت السواحل المغربية، والتي ركزت على نهب ممتلكات السكان، وتحديدا من المواشي والدواب، فعندما هاجم الإسبان سواحل بادس، أرسلوا فرقا عسكرية إلى السهل "لاختطاف بعض القطعان"[٢٣]، وكذلك في مليلة[٢٤]، ويتبين من النصوص أن أعداد الرؤوس التي حصلوا عليها كان كبيرًا[٢٥].

إلى جانب ذلك، لجأ البرتغاليون، الذين استولوا على العديد من المدن الساحلية والسهول الغنية المحيطة بها خلال القرنيين (٩-١٠هـ/١٥-١٦م)، إلى حملات ممنهجة لنهب السكان[٢٦]، مما أدى إلى استنزاف الثروة الحيوانية بالسهول الأطلسية[٢٧]، وانضاف إلى ذلك غارات المتعاونين معهم من المغاربة، ففي رسالة لعبد الرحمان بن حدو، أحد أتباع أوتعفوفت، إلى ملك البرتغال يقول: "ونُعلمك أن...حركنا للحوز وأكلنا ثلاثين دوارا بمالها ونسائها"[٢٨]. ويتضح بجلاء حجم الدمار الذي خلفته هذه الحملات على المنطقة، إذ جردت السكان من مواشيهم ودوابهم[٢٩]، وأفرغت مطامير الزرع، وأحرقت القرى والمداشر، وأرغمت الكثير من القبائل على الفرار، وتركت تلك السهول فارغة من السكان وغدت مقيلا للحيوانات المتوحشة[٣٠].

٣/١-النهب: "ظاهرة" مجتمعية

نتج عن الأزمات المتلاحقة التي ضربت المجتمع المغربي، من قحوط ومجاعات وأوبئة[٣١]، وما رافقها من حروب وقلة الأمن، تحول النهب، وما يصاحبه من تخريب، من فعل فردي إلى ممارسة "مقبولة" اجتماعيا، باعتباره "ضرورة" للبقاء، وغدى فعلا "مؤسسا" وعاما؛ حيث إن الحرب والنهب المرافق لها، ارتقى "إلى مستوى صناعة تسترزق منها أعداد هائلة من ساكنة المغرب"[٣٢] منذ العصر الوسيط، وهو ما انعكس على الذهنية العامة التي تكيّفت مع هذا الفعل، لدرجة أن بعض قبائل زمور، خلال القرن التاسع عشر، صارت "تعتبر السرقة عملاً مشرفًا"[٣٣].

وفي السياق نفسه، تطورت وظيفة الكثير من الزوايا من إطعام المحتاجين وإيواء الغرباء، إلى ممارسة أشكال مختلفة من العسف والشطط، وامتصاص موارد الفلاحين القليلة، كإلزامهم بتقديم جزء من المحصول للزاوية، أو إسداء خدمات متنوعة دون مقابل (السخرة)، مثل المشاركة في الحصاد والدراس لصالح الزاوية، أو جلب الحطب لها[٣٤]. كما تعرضت الزوايا المعارضة، رغم ما كونته من رصيد "القدسية" باعتبارها حُرُمًا، للنهب من طرف المخزن، فقد بعث محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠م) جيشه لزاوية بني توزين بالريف، "فنهبوا ما وجدوا في دورها من سمن وعسل وزرع وأثاث وغير ذلك وحرقوا الدور وهدموها"[٣٥].

تعمقت أزمة الأمن مع تفكك الدولة المركزية، وارتخاء قبضتها الأمنية، بعد هزيمة العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، وبفعل سيطرة قبائل بدوية، دَيْدنُها الغزو والنهب، على مجال المغرب، كالمرينيين وبني هلال وبني معقل[٣٦]، مما أدى إلى استفحال أعمال السرقة والنهب، وتزايد حالاتها منذ القرن (٦هـ/١٢م)[٣٧]، واشتد الحال في القرون التالية[٣٨] نتيجة الوضعية السياسية المتأزمة، وقد لخص الرحالة الأندلسي ابن الصباح حال بلاد المغرب خلال القرن (٩هـ/١٥م)، بقوله: "جميع هذا البر العدوي]المغرب] المذكور كثير الحُرميات [اللصوص]، والقطّاع في جميع الأقطار من هذا البر المذكور من بلاد بني مرين"[٣٩].

عمدت الكثير من القبائل إلى النهب في إطار الصراع مع القبائل الأخرى للسيطرة على المجالات الرعوية أو الزراعية الخصبة، أو الممرات التجارة، التي كانت مصدر دخل للكثير من القبائل البدوية، في مجالات المغرب الصحراوية، سواء من عمليات النهب في حد ذاتها[٤٠]، أو من خلال ما يحصلون عليه لقاء حراسة القوافل من هجمات اللصوص[٤١]. كما أن الأعراب الرحل مارسوا عدة أشكال من العسف والغصب على السكان المستقرين، مما كان يدفع هؤلاء إما للهروب أو الإقلاع عن الزراعة وتربية الماشية[٤٢].

توسعت عمليات النهب والتخريب لتشمل الوحدات الاجتماعية المتجانسة نسبيا، فقد انتشرت داخل نسيج القبيلة الواحدة، وذلك في إطار "الصراعات الانقسامية" في مستوياته العليا بين اللفوف والفخذات، أو في مستوياته الدنيا بين الخيام والدواوير، فقد نشب صراع خطير بين قبائل الشاوية، "وأخذو في قتل بعضهم بعضا، ويحرقون [كذا] الزرع والتبن، ويخطفون الماشية ويطلّعون الأمراس، حتى كان الرجل يقتل الرجل، ويشق بطنه ويشرب دمه من جوفه"[٤٣]. إنها إشارة تبين مدى قسوة الظروف، وحجم التطاحن بين الإنسان وأخيه في مغرب ما قبل الاستعمار.

هكذا انتشر النهب واستفحلت السرقة في "كل مكان"، ومارسه الأفراد والجماعات، ولم يسلم أحد منه، فالموكب الحجي، رغم ما كانت ترافقه من هالة و"قدسية"، نهب في العديد من المرات[٤٤]، كما تعرضت البعثات الديبلوماسية الأوربية إلى المغرب للسرقة[٤٥]. وكصدى لهذا الانتشار الواسع للنهب، فإن كتب النوازل تكررت بها أسئلة كثيرة حول الأشياء المغصوبة من ماشية وأثاث ولباس[٤٦]، إذ طرح النهب إشكالات فقهية، ما بين اعتباره فعلا محرما ومحظورا من جهة، وممارسة مقبولة اجتماعا، في ظل نسق تطبعه القلة، من جهة ثانية.

ثانيًا: دوافع النهب والتخريب ووظائفه

١/٢-النهب "كنمط عيش"

تحول النهب والسرقة إلى "نمط عيش"، نتيجة الفقدان الدائم للأمن وقلة الإنتاج وجور السلطة، حيث تخلى الكثير من الفلاحين عن الحراثة، وصاروا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطريق، فقد أشار الوزان، خلال القرن (١٠هـ/١٦م)، إلى أن سكان جبل بني خالد يلجؤون إلى النهب والسرقة بفعل فقرهم الشديد وثقل الضرائب المفروضة عليهم[٤٧]، أما الرحل في الصحراء فيقضون "حياتهم كلها حتى الموت، في الصيد واختطاف جمال أعدائهم"[٤٨]. وساعد على فشوّ أعمال السرقة والنهب، وجود منظومة اقتصادية قابلة لدمج السلع المسروقة، إذ أن السراق لم يجدوا أي صعوبة في إعادة طرح المواد والمواشي المسروقة في نظام التبادل، فقد كانت بعض قبائل الصحراء تستبدل المواشي المسروقة بالتمر[٤٩].

تتضح الغاية الاقتصادية للنهب من خلال تركيز اللصوص على نهب البهائم، حيث استهدفت السرقة جميع أنواع المواشي[٥٠] والدواب[٥١]، وكانت عرضة للغصب في مختلف الأماكن، فقد سُرقت البهائم من مراعيها[٥٢]، ومن زرائبها[٥٣]. ويظهر أن أعمال سرقة المواشي كانت تزيد حدتها عند اقتراب عيد الأضحى[٥٤]. وكان المسافرون معرضون أكثر من غيرهم لخطر السلب، وكثيرا ما فقد التجار مواشيهم[٥٥]، وسرقت دابة ابن تومرت، في عودته من المشرق، خلال نزوله قرب سلا[٥٦]، وسلب الأعراب فرس الوزان في إحدى رحلاته[٥٧]، وتخصصت بعض القبائل في سلب دواب المسافرين، إذ كان أعراب العمارنة، خلال القرن (٨هـ/١٤م)، يكثرون "الغزو إلى اعتراض العير"[٥٨] في القفر.

بالإضافة إلى ذلك، لجأت الكثير من القبائل البدوية إلى أعمال النهب لتحقيق التوازن في مواردها، حيث إن مداخيلها من تربية الماشية، خاصة في المناطق الجافة الفقيرة، لم تكن تسمح لها بتحقيق الاكتفاء في الموارد[٥٩]. إلى جانب ذلك مارست القبائل الأعرابية، خلال القرن (١٠هـ/١٦م)، أعمال التخريب في المناطق السهلية الأطلسية الغنية، لمنع الفلاحين من العودة لأعمال الزراعة، وحتى يتسنى لها الحفاظ على نمط إنتاجها القائم على الرعي والتنقل[٦٠]، حيث أسهم توطين قبائل الخلط وسفيان ورياح في دكالة وتامسنا وأزغار في تراجع الزراعة، وزادت عمليات النهب والسرقة، وهو ما يمكن ملامسته من خلال ارتفاع منسوب الإشارات والكرامات المتعلقة بأعمال اللصوصية والنهب والتخريب في المصادر انطلاقا من القرن (٦هـ/١٢م)[٦١].

٢/٢-إعادة التوزيع في اقتصاد "القلة"

انتشرت هذه الظواهر نتيجة الصراع الشديد حول الموارد من أجل ضمان البقاء؛ ففي ظل سيادة طابع مناخي تغلب عليه القحولة وتوالي سنوات الجفاف، وزيارة المجاعات والأوبئة بشكل دوري[٦٢]، وما يتبعها من تراجعات سكانية[٦٣]، وبدائية التقنيات، انطبع الاقتصاد بسمة "القلة" و"الندرة"[٦٤]، مما جعل التدافع حول توزيع هذه الموارد القليلة شديدا، وتحول، في الكثير من الأحيان، إلى نهب وسرقة وتخريب بين مختلف الأطراف. وقفت عدة دوافع وراء عمليات النهب والسلب، إلا أن أهمها يرتبط بالفقر والحاجة، إذ كانت اللصوصية سبيلاً للبقاء، وتحديدًا في المناطق الفقيرة كالصحراء[٦٥]، والجبال الشحيحة، مثل جبل بني يَدَّرْ بالريف، حيث السكان "بسبب فقرهم يقتلون الغرباء ويسلبونهم"[٦٦]، أو جبل دادس، حيث "الرجال غادرون متلصصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة"[٦٧]. بالإضافة إلى دور الجوع، في الأزمات الغذائية، كدافع بيولوجي وراء السرقة[٦٨].

لقد كان النهب، كممارسة اجتماعية، تتوخى "إعادة التوزيع في بيئة تعرف الندرة والاختلال الدوري بين الساكنة والموارد"[٦٩]، في ظل مجتمع يتميز بقلة الإنتاج وتذبذبه، وضعف المبادلات وقلة استعمال النقد وغياب مكاييل وأوزان موحدة، ويقوم فيه الاقتصاد على أشكال من المبادلة و "معاوضة المصالح والأمتعة، في مدة تطول أو تقصر، وعلى جملة من أشكال المهاداة بالمناسبات، والتآزر أيام الشدة، والتكافل بصفة عامة"[٧٠].

٣/٢-النهب والتخريب: أداة "إخضاع" سياسية

عرف المغرب طوال تاريخه ظاهرتي النهب والتخريب، لكنهما استفحلتا في بعض الفترات[٧١]، خاصة زمن التطاحنات السياسية حول السلطة، والتي اعتبرت ظاهرة بنيوية، إذ تنشب الحروب عند وفاة كل سلطان نظرا لغياب "قاعدة محددة لوراثة الحكم"[٧٢]، مما كان يقود إلى أزمات يطول أمدها، مثلما حدث عقب وفاة أبي عنان المريني سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، أو المنصور السعدي سنة (١٠١١هـ/١٦٠٣م)، أو إسماعيل العلوي عام (١١٣٩هـ/١٧٢٧م)، والتي تطلبت جهودا كبيرة من الحكام الجدد لتجاوز حالة انفلات الأمن ومراقبة التراب، من خلال القيام بحملات عسكرية عنيفة و"مُخربة" لإخضاع الخصوم والقضاء على القبائل المتمردة.

ولعل مما يثير الانتباه أن هذه الحملات العسكرية لم تكن تقتصر على نهب الثروات القليلة التي لدى السكان من الحبوب والدواب[٧٣]، بل كانت تتجاوز ذلك إلى "التخريب"، حيث لا تتوانى عن إحراق الحقول[٧٤]، وقطع الأشجار[٧٥]، وتخريب البنايات[٧٦]، بل امتدت أيدي

التدمير إلى الأماكن المقدسة لدى السكان مثل المساجد والزوايا والحرم والقبور[٧٧]، وهي سياسة كان يهدف المخزن من ورائها إلى تدمير الأساس المادي للقبيلة أو الزاوية العاصية، بضرب قوتها ووسائلها الإنتاجية، كما تندرج ضمن "الحرب النفسية" على الخصم من خلال قوة "مشاهد التخريب" وتأثيرها في النفوس خاصةً تخريب الأماكن ذات "القدسية" لدى السكان.

وفي ذات السياق جعلت الحركات المتمردة، من النهب والحصول على الدواب، وخاصة الخيل، "أولوية عمليّاتيةّ"، لتقوية جانبها ولاكتساب المزيد من الأتباع، وإرهاب القبائل المناوئة، مثلما فعل بنو مرين سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م)، عندما قتلوا عامل الموحدين على تازا، فقد قام أميرهم عبد الحق بجمع خيل الغنائم، ووزعه على المرينيين، "فأعطا الخيل لمن لم يكن له فرس من قومه"[٧٨]. كما عمد حفيد عمر السياف، المتمرد في قلعة المريدين بحاحا، إلى إرسال فرسانه لسلب الماشية[٧٩]، وهو ما منحه الأساس الاقتصادي للصمود أمام حصار وعداوة جيرانه من القبائل[٨٠]. وكذلك ذهبت ماشية الأهالي ضحية الصراع بين الدولة ومناوئيها، مثلما حدث في الصراع المريني-الموحدي[٨١].

٢/٤-التخريب بغرض "إعادة التدوير"

هدف التخريب في الكثير من الحالات إلى الحصول على "مواد أولية" كالأخشاب والأحجار والجوائز من البنايات القائمة، وهو ما نلمسه من خلال عمليات التخريب التي كانت تطال البنايات، سواء من طرف الدولة أو القبائل أو الأفراد، على غرار ما قام به السعيد الموحدي، سنة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، حيث نقض "جامع حسان الذي برباط الفتح، وصنع بخشبه الأجفان الغزوانية، فكانت مباركة فأحرقت بوادي أزمور"[٨٢]، ويظهر أن السعيد خرب ما بناه سابقوه نظرا لأزمة الخشب[٨٣] ولحاجته الماسة إلى بناء الأسطول لإعادة توطيد أركان الإمبراطورية الموحدية المتداعية.

تكررت في تاريخ المغرب ظاهرة تدمير اللاحق لما بناه السابق، ويتراءى ذلك جليا في إقدام السلطان إسماعيل العلوي على تخريب قصر البديع، الذي بناه المنصور السعدي، ونقلت بعض مواده لبناء القصور في مكناس، ولم تبق منطقة في "المغرب إلا ودخلها شيء من أنقاض البديع"[٨٤].

لا شك أن العوامل السياسية تحكمت في تصرفات سلاطين الدول، من خلال تدمير الرموز السياسية للدول السابقة، إلا أن ممارسة هذه الأعمال من طرف الدول والقبائل، يظهر الرغبة الكامنة في إعادة تدوير المواد السابقة الاستعمال، نظرا لقلتها كالأخشاب[٨٥]، أو بسبب صعوبة نقلها كالأحجار نتيجة بدائية وسائل النقل وغياب الطرق والقناطر وقلة الدواب وهزالها[٨٦]، كما أن البنايات المدمرة، مثل القصور، كانت تتضمن مواد رفيعة القيمة يصعب الحصول عليها، مثل الرخام، فكان الحل الأسهل أمام الدول أو القبائل هو نهبها من البنايات الموجودة.

٢/٥-ترسّخ "قيمة" النهب في الذهنية

أثرت الذهنية العامة في انتشار النهب والتخريب وتأثرت بدورها بهذه الأعمال، حيث تجسد ذلك في احتقار العمل بصفة عامة، وخاصة العمل الزراعي، الذي كان النشاط الرئيس لغالبية السكان. فقد كان رجالات الدولة، وهم في الأغلب من البدو، ينظرون بازدراء إلى الحراثة ومتعاطيها، وقد تأثرت "نخبة الدولة" بهذه الأفكار وروجت لها، كابن أبي زرع[٨٧]، وابن خلدون الذي اعتبر الزراعة "معاش المستضعفين"[٨٨]، ولم يخف الوزان احتقاره لأهل البادية من الزراع[٨٩].

لم تقتصر هذه النظرة على رجال الدولة أو البدو، بل هو موقف اتخذته مختلف فئات المجتمع من الخاصة والعامة[٩٠]، حيث كان ينظر إلى العمل الشاق والمنتج بازدراء. في المقابل حصل نوع من "القبول الاجتماعي" لأعمال الغزو والنهب، خاصة عند القبائل البدوية المتعودة على الغزو[٩١]، إذ لم يتقبل الصنهاجيون إرادة عبد الله بن ياسين تطبيق الحدود الشرعية في السارق، واعتبروها قاسية[٩٢]، وفي القرن (١٣هـ/١٩م) كانت بعض قبائل زمور تعتبر السرقة عملا مشرفا[٩٣]، وذهب أحدهم إلى أن "البدوي يُدرب وهو طفل على القيام بأعمال سرقة، على أن يمارسها اتجاه القبائل الغريبة فقط"[٩٤].

في المقابل، مُجّدت أعمال الغزو والنهب والتخريب، فمؤرخ الدولة المرينية يصف بافتخار قبيل بني مرين بأنهم كانوا "لا يعرفون الحرث ولا التجارة، ولا يشتغلون بغير الصيد وطراد الخيل والغارة"[٩٥]، أما صنهاجة الصحراء ف"ليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض"[٩٦]، ونعت ابن خلدون القبائل التي تعتمد في معاشها على الظعن والغزو "بأهل العزّ"[٩٧]، وتبعا لذلك مَجَّدَ المجتمع خصال الشجاعة والفروسية[٩٨] التي تتطلبها أعمال الغزو والنهب، ولم تُبدِ النصوص أي استنكار لأعمال التخريب المصاحبة لهذه الأعمال. ولعل من الإشارات الدالة على انغراس النهب في الذهنية والسلوك ما أشار إليه الوزان بخصوص أعراب الصحراء، فرغم أنهم يعيشون عيشة فارهة مثل الملوك، ويملكون أكثر مما يملك الحضريون، "غير أنهم لا يؤتمنون لعدم تورعهم عن النهب والقتل، رغم مجاملتهم البالغة"[٩٩].

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ النهب ظاهرة قديمة، عرفته كل المجتمعات البشرية، لكن في المغرب، ونتيجة لقلة الموارد، وتأثرها بدورات الجفاف، وهجوم الأوبئة والجراد، وما تخلفه من مجاعات شديدة، حولت "النهب" إلى "ظاهرة مجتمعية"، تمارسه مختلف الأطراف، وبأشكال متنوعة. وهي ظاهرة لا تزال تُلمس بعض جوانبها، رغم انتفاء دوافعها، في بعض سلوكيات المغاربة، مثل الجشع/"اللهطة" الذي طبع اقتناء المواد الغذائية من الأسواق قبيل فرض الحجر الصحي[١٠٠]، أو النهب الذي تتعرض له الشاحنات المنقلبة في حوادث السير، أو سرقة محلات الأسواق المُحترقة.

كان النهب، كممارسة مجتمعية ومخزنية، يؤدي إلى تدمير كل شروط الإنتاج، وتراكمه، كما يقضي على ثروة السكان، بشكل يصعب تعويضه، فقد كانت القبيلة، المعرضة للنهب المخزني، تلجأ إلى بيع مواشيها وزروعها بأقل الأثمان[١٠١]، أو تتخلى عنها بدون مقابل لصالح قبيلة أخرى[١٠٢]. كما أسهم النهب في تعطيل الطرق التجارية ونشر الخوف في المسالك، مما قلص من المبادلات بين المناطق، وحال دون ازدهار التجارة.

لجأت الدولة إلى التخريب بدوافع وغايات مختلفة، استهدفت من جهة معاقبة القبائل العاصية من خلال حرمانها من وسائل الإنتاج وتكوين الثروة، كما استعانت بالآثار النفسية التي تخلفها مشاهد التخريب والتدمير من أجل تحذير القبائل التي تنوي التمرد من المصير الذي ينتظرها.

هدفت ممارسات التخريب في بعض الأحيان إلى الحصول على المواد الأولية، من أخشاب وأحجار وجوائز، بغرض إعادة استعمالها، نظرا لقلتها من جهة، أو صعوبة نقلها نتيجة مشاكل النقل والتنقل. كما هدفت الدول أيضا من هذه الممارسات إلى إعفاء رسوم الدول السابقة، بسبب ما تحمله البنايات من "رمزية سياسية".

أدى النهب والتدمير المتكرر إلى حالة من الخوف الدائم لدى الإنسان المغربي، وولد لديه "سلوك التخريب"، حيث أصبح من هول الأزمات يخشى التخريب، ويمارسه في نفس الوقت، إذ تتكرر في النصوص حالات هدم البنايات وحرق الحقول واقتلاع الأشجار[١٠٣]، وهي مشاهد لا تزال تُرى إلى حدود الحاضر وتتخذ أوجها عديدة كتخريب الحدائق العمومية وملاعب كرة القدم أو تكسير الحافلات العامة[١٠٤]، وغيرها كثير.

الإحالات المرجعية:

(١) تنتشر بين الفينة والأخرى الأخبار والفيديوهات، المصوّرة لهذه الوقائع، في وسائل التواصل الاجتماعي وعلى منابر الصحف، ويمكن الرجوع إلى بعض المواد، لا الحصر: "مواجهات وتخريب في مباراة كرة يثير غضبا بالمغرب"، شوهد في ٥-٦-٢٠١٩، في: https://bit.ly/3cVX5C0. "تخريب المرافق العمومية ... مســـؤولية من؟"، شوهد في: ٦-١-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3cVX5C0. "اعتقال عشرة أشخاص نهبوا شاحنة منقلبة وتاجر اشترى المسروقات والبحث جاري عن باقي المتورطين بالدار البيضاء"، شوهد في: ١٠-٥-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3cVY316. "اعتقال ٥٨ متهما بالسرقة والنهب في حريق سوق مليلية بوجدة"، شوهد في ١٧-٣-٢٠١٨، في: https://bit.ly/37sNcui.

(٢) أثارت ما تعرف ب"حادثة صندوق التفاح"، أثناء تدخلات أحد رجال السلطة بإبان الحجر الصحي، المرافق لجائحة كورونا العالمية، نقاشا كبيرا حول صحة الواقعة من عدمها، وأعاد النقاش حول مسألة "الشطط والعسف" في استعمال السلطة، أنظر: "بسبب صندوق تفاح.. رجل سلطة يثير جدلا في المغرب"، شوهد في: ٢٦-٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/3fjS7QU.

(٣) فرانسوا دوس، **التاريخ المفتّت، من الحوليّات إلى التاريخ الجديد**، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٩، صص. ١٦٧-١٦٨.

(٤) محمد الطاهر المنصوري في تقديمه للترجمة التي خصصها لكتاب: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوگوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٧، صص. ٢٣-٢٤. محمد استيتو، "الأزمة الديموغرافية في تاريخ المغرب الحديث"، **كنانيش**، العدد ١، صيف-خريف ١٩٩٩، ص. ١٣٠.

(٥) لوگوف، **التاريخ الجديد**، ص.٩.

(٦) الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق: حالة المغرب الوسيط"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، منشورات جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، العدد ٢، ١٩٩٥، ص.٧٣.

(٧) يمكن العودة إلى المقال المرجعي لمحمد القبلي حول أهمية الطرق التجارية في بناء وضمان استمرارية الدول المغربية الوسيطية، فقد **"قامت كلها وتأسست لأسباب من أهمها احتكار التجارة الخارجية بشكل أو بآخر بواسطة التحكم في الطرق"**، أنظر: "ما لم يرد في كتابات ابن خلدون"، ضمن: **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٨٧، ص. ٥٩.

(٨) مثلاً: إن المتبع لحملات المرينيين بالأندلس، خلال عصر أبي يوسف يعقوب، سيلحظ بشكل جلي الحضور القوي لهاجس الحصول على الغنائم في هذه الغزوات، علي بن أبي زرع الفاسي (ت. بعد سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، **الأنيس المُطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، صص.٣٢٧-٣٣٩-٣٤٢-٣٤٣-٣٤٥-٣٤٧-٣٤٨-٣٥١-٣٥٤-٣٥٦-٣٥٧-٣٧٨.

(٩) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص.٣٦٩.

(١٠) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت. بعد سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م)، **وصف إفريقيا**، جزآن، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٣، ج. ١، ص.٢٨٩.

(١١) أبو القاسم الزياني (ت. ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م)، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، القسم ١، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ط. ١، ١٩٩٢، ص.٣٦.

(١٢) محمد الضَّعَيِّف الرباطي (كان حيا سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م)، **تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ط. ١، ١٩٨٦، ص.٣٢٤.

(١٣) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، صص.٤-٣٠-٥-٣.

(١٤) أبو فارس عبد العزيز الفشتالي(ت. ١٠٣١هـ/١٦٢١م)، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، ١٩٧٢، ص.٥٢.

(١٥) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.١٧٨.

(١٦) حميد تيتاو، "الدولة والعنف في تاريخ المغرب الوسيط: دراسة حالة"، **أمل**، المجلد ١٥، العدد ٣٣، ٢٠٠٨، ص.٩٥.

(١٧) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص. ٣١٨.

(١٨) الضَّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٢٤٨.

(١٩) قبض محمد بن عبد الله على والي أهل الغرب، الباشا الحبيب المالكي، **"وأمر بنهب أمواله ومواشيه، وجميع ما إليه، وهدم قصره"**، الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.٣٩١.

(٢٠) الزياني، **البستان الظريف**، ق. ١، ص.٣١٧.

(٢١) الضَّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.١٧٨.

(٢٢) أمين توفيق الطيبي، **دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس**، جزآن، الدار العربية للكتاب، طرابلس؛ تونس، ١٩٩٧، الجزء ٢، ص.١٤٥. عزالدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت؛ القاهرة، الطبعة ١، ١٩٨٣، ص. ٢٩٠. محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط: الدولة، المدينة، الاقتصاد**، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٩٩، ص.٣٨٣. محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن ٦إلى ٩هـ/ ١٢-١٥م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٩، ص.٣١٢. القبلي، **مراجعات**، ص.١٣. حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز، مطبعة عكاظ، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص.٢٧٣-٢٧٧. أحمد عزاوي، "الأسطول، التجارة، القرصنة فيما بين القرنين ٦ و٨هـ(١٢-١٤م)"، ضمن: **البحر في تاريخ المغرب**، تنسيق رقية بلمقدم، أعمال الأيام الوطنية الرابعة للجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٤-٢٥-٢٦ أكتوبر ١٩٩٦، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، ١٩٩٩، ص.٧٢-٧٧. مصطفى نشاط، "المغرب المريني وأزمة القرن ١٤م النقدية"، **أمل**، السنة ١، العدد ٣، ١٩٩٣، ص.١٠.

(٢٣) كربخال مارمول Carbajal MARMOL (ت. ١٦٠٠م)، **إفريقيا**، ٣ أجزاء، ترجمة محمد حجي وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ج. ٢، ص.٢٤٥.

(٢٤) مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٢٦.

(٢٥) بالمقارنة مع ما حصل عليه الاسبان في القرن ١٠هـ/١٦م، في حملتهم على سهول قرب وهرات، حيث "اختطفوا ١٥٠٠ رأس من الماشية الكبيرة والصغيرة"، مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٣١١.

(٢٦) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (١٤٨١-١٥٤١م)**، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٨٤، ص.٤٤٨.

(٢٧) دييگو دي طُوريس Diego de TORRES (كان حيا سنة ١٥٧٩م)، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المدارس، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص.٤٠.

(٢٨) عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوروبا. ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء؛ بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠٠، ص.١١.

(٢٩) خلال أحد حملات البرتغاليين، عادوا إلى أسفي محملين **"بأكثر من عشرين ألف رأس من الماشية، وأربعمائة جمل، دون أن يجدوا أحدا يجرؤ على مواجهتهم"**، مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٧٩.

(٣٠) أحمد بوشرب، **مغاربة في البرتغال خلال القرن السادس عشر**، منشورات كلية الآداب، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة ١، ١٩٩٦، ص.٥١.

(٣١) يمكن الرجوع إلى الدراسات المتخصصة حول موضوع المجاعات والأوبئة التي ضربت المغرب طيلة العصرين الوسيط والحديث، والتي تتفق جميعها على التلاحق الدوري لهذه الكوارث، الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**، منشورات الزمن، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص.٤٥. عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق٦-٨هـ/١٢-١٤م)**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة ١، ٢٠٠٨، صص.٣٧-٣٨. محمد ياسر الهلالي، "أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط"، ضمن: **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، الأيام الوطنية العاشرة بالجديدة، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط، ٢٠٠٢، صص. ١٦٧-٢٢٦.، صص.٢٠٠-٢٠٧. محمد البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**، ص. ٢٩. Bernard ROSENBERGER, Hamid TRIKI, "Famines et épidémies au Maroc aux XVI(éme) et XVII(éme) siècles", **Hespéris-Tamoda**, Vol. XIV, fascicule unique, 1973, p.109-175. 1974, p.05-104.

(٣٢) الحسين بولقطيب، "أسلوب الإنتاج الحربي"، ص.٧٦.

(٣٣) عبد الأحد السبتي، **بين الرطاط وقاطع الطريق: أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة١، ٢٠٠٩، ص.٢٩.

(٣٤) محمد بن عبد السلام الناصري (ت. ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م)، **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا (الزاوية الناصرية)**، دراسة وتحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٣، ص.١١٢.

(٣٥) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.١٩٤.

(٣٦) تفاقمت مشكلة السرقة في السهول الأطلسية، بعد استقرار القبائل الأعرابية هناك، ومن الإشارات الأولى التي ترصد أعمال السرقة التي أصبحت تقوم بها هذه القبائل، المستقرة حديثا بالمجال، ما نُقل عن أحد زوار الولي أبو يِلْبُخْتْ يالِلْتَنْ الأسود، تلميذ أبي يعزى، المتوفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، خلال مروره بسهل تادلا حيث قال: "فلقيت العرب في طريقي وهم يعيثون في الناس يمينا وشمالا وأنا راكب على دابتي فحفظني الله منهم ولم يتعرضوا لي"، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (ت.٦٢٧ أو٦٢٨هـ/١٢٢٩أو ١٢٣٠م)، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ٢، ١٩٩٧، ص.٣٨٣. ويظهر أن هذه القبائل قد شرعت في أعمال اللصوصية مباشرة بعد توطينها في هذا المجال، وفي ظل قوة الإمبراطورية الموحدية، وهو ما تؤكده ترجمة الولي أبو عمر ياحْميان ابن عبد الله الصنهاجي، من قرية تيمغسن من بلد أزمور وبها مات سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م، ن.م.، ص.٤٠٩.

(٣٧) أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي (ت. ٦٠٣هـ/١٢٠٦م أو ٦٠٤هـ/١٢٠٧م)، **المستفاد في مناقب العُبَّاد، بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، جزآن، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، ط. ١، ٢٠٠٢، ج. ٢، ص.١١٧-١٢٢. ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤-٣٥٨-٣٨٣-٤٠٩. أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي (ت. ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، **الرَّوضُ المِعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٤، ص.٦١٩.

(٣٨) رصد ابن الخطيب في رحلاته، بين فاس وسلا ومراكش، قلة الأمن وعموم الفتن وكثرة السرقة، لسان الدين بن الخطيب (ت.٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، **نُفاضة الجِراب في عُلالة الاغتراب**، الجزء ٢، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص.٦٨.

(٣٩) عبد الله بن الصَّبَّاح الأندلسي(ق.٩هـ/١٥م)، **نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار**، تحقيق جمعة شيخة، منشورات مجلة دراسات أندلسية العدد ٤٥-٤٦، ديسمبر ٢٠١١، المطبعة المغاربية، تونس، ٢٠١٢، ص.٥٩.

(٤٠) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٥٨.

(٤١) حول ظاهرة الزطاطة راجع الدراسة التفصيلية التي أنجزها عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق**، م.س.

(٤٢) سجلت المصادر التاريخية عدة أمثلة لذلك، أنظر مثلا ما سجله الوزان خلال القرن ١٦م، **وصف إفريقيا**، ج.٢، ص.١٢-٥٢؛ وأيضا ما أورده الهلالي السجلماسي(ت. ١١٧٥هـ/١٧٦١م) من إشارات في رحلته: **التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام: قطعة من رحلة العلامة أبي العباس الهلالي السجلماسي**، دراسة وتحقيق محمد بوزيان بن علي، [د.ن.]، [د.م.]،[د.ت.]، صص.١٤٦-١٨٠-٢١٨.

(٤٣) الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٣٥٨.

(٤٤) انظر على سبيل المثال لا الحصر: أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت. ١١٢٩هـ/١٧١٧م)، **الرحلة الناصرية**(١١٢١هـ/١٧٠٩م-١١٢٢هـ/١٧١٠م)، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط. ١، ٢٠٠١؛ الهلالي، **التوجه لحج بيت الله**، صص. ٢١-٢٢٥.

(٤٥) جوزي دي سانطو أنطونيو مورا، "يوميات أول سفارة برتغالية إلى المغرب على عهد السلطان مولاي سليمان"، تقديم وتعريب عثمان المنصوري، **أمل**، ع.٥، السنة الثانية، ١٩٩٤، ص.٥٦.

(٤٦) أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت. ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ١٣جزء، تخريج جماعة من الفقهاء، إشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية؛ الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، الجزء ٥، ص.٢٥١، ج.٦، ص.١٨١؛ مجموعة من الفقهاء، **فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال**، جزآن، جمع وتنظيم محمد الهيْطي المواهبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٨، ج.١، ص.٣٠٥.

(٤٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص. ٣٣٠.

(٤٨) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٥٨-٥٩.

(٤٩) مارمول، **إفريقيا**، ج.٣، ص.١٧٩.

(٥٠) مثل أبو وكيل ميمون ابن تاميمونت الأسود، ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤.

(٥١) الونشريسي، **المعيار**، ج.٥، ص.١٢٠-٢٤٨.

(٥٢) أبو الحسن علي الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، ١١ جزء، مراجعة وتصحيح يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج.٨، ص. ٣٣٠.

(٥٣) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤.

(٥٤) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٣٧٩.

(٥٥) ابن الزيات، **التشوف**، ص.٣٧٩.

(٥٦) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق (ت. أواسط القرن ٦هـ/١٢م)، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص.٢٦.

(٥٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٧٥.

(٥٨) عبد الرحمان بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى تُرجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ٧ أجزاء، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج.٦، ص.٨٩.

(٥٩) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٢٨٢. مارمول، **إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٨-١٠٩.

(٦٠) مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.١٣١-١٣٩-١٤٠-١٤٢.

(٦١) التميمي، **المستفاد**، ج.٢، ص.١١٧-١٢٢. ابن الزيات، **التشوف**، ص.٢٣٤-٣٥٨-٣٨٣-٤٠٩. الصنهاجي، **الرّوضُ المِعطار**، ص.٦١٩. وقام السعديون بتنقيل الرحامنة من الصحراء إلى تامسنا، مارمول، **إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٦٢) حول التأثيرات الكارثية للمجاعات والأوبئة على الإنسان، وعلى وسائله الإنتاجية، خاصة ثروته الحيوانية، يمكن الرجوع إلى إسهامنا: "الإنسان والحيوان إبان الأزمات في تاريخ المغرب"، ضمن: **الأزمات والهشاشة بالمغرب**، مقاربات متقاطعة، أعمال مهداة للأستاذ محمد استيتو، تنسيق مصطفى نشاط وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطابع الرباط نت، الرباط، ٢٠١٩، ص. ٣٠٥.

(٦٣) ROSENBERGER, TRIKI, "Famines et épidémies", op.cit., p.134.

(٦٤) خلصت عدة دراسات إلى طبيعة "القلة" التي ميزت الاقتصاد في مغرب ما قبل الاستعمار، وهو اقتصاد يقف **"دوما على حافة المجاعة"**، أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. إينولتان ١٨٥٠-١٩١٢**، ط.٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٣، ص. ٦٢١. أو **"اقتصاد الكفاف"**، محمد البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات**، ص. ٢٩. عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، ط.١، منشورات كلية الآداب، الرباط، ١٩٩٥، ص. ٢٢١، الهامش ٢٧٣.

(٦٥) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٥٤.

(٦٦) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٣٣٥. مارمول، **إفريقيا**، ج.٢، ص.٢٥٣.

(٦٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٨٩.

(٦٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد التجاني (ت. بعد ٧١٧هـ/١٣١٧م)، **رحلة التجاني**، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا؛ تونس، ١٩٨١، ص.١٩١.

(٦٩) السبتي، **بين الرباط وقاطع الطريق**، ص.٢٨٩.

(٧٠) عبد الرحمان المودن، **البوادي المغربية**، ص. ٢٢١، الهامش ٢٧٣.

(٧١) حول مفهوم الفترة ودلالاتها يمكن الرجوع إلى مقال: عبد الرحمان المودن، "الحوليات والأزمات السلطانية (١٧٢٧-١٧٥٧م): مصطلح الفترة"، ضمن: **الإسطوغرافيا والأزمة**، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة ١، ١٩٩٤، صص.٥-١١٣.

(٧٢) مجموعة مؤلفين، **تاريخ المغرب: تحيين وتركيب**، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، مطبعة عكاظ الجديدة، الرباط، الطبعة ١، ٢٠١١، ص.٢٠٨.

(٧٣) عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت. ٥٩٤هـ/١١٩٨م)، **المن بالإمامة، تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر الموحدين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٣، ١٩٨٧، ص.٢٤٤. أبو محمد حسن بن علي بن القطان الكتامي المراكشي (توفي منتصف القرن ٧هـ/١٣م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، دراسة وتقديم وتحقيق محمد علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٠، ص.٢٣٨. الصنهاجي، **الرّوضُ المِعطار**، ص.٦١٩. أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي (كان حيا سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م)، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ٤ أجزاء، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٠، ج.٢، ص.٢٤٦؛ **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة ١،

١٩٨٥، ص.٣٥٤-٣٩٠-٤٥٥-٤٥٦. ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٣٠٥؛ **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص.٣٢. ابن خلدون، **العبر**، ج.٧، ص.١٤٦.

(٧٤) يخبرنا أحد المغامرين الإسبان أن السلطان محمد بن عبد الرحمان(١٨٥٩-١٨٧٣م)، بمجرد **"ما أقبل موكبه على الرحامنة، حتى أمر بإيقاد النيران في المزروعات كإنذار للأعداء...ما دفع ساكنة ضفاف نهر أم الربيع يسارعون إلى تقديم الولاء كرها قبل أن تلتهم النيران معاشهم في الحقول والبساتين"**، أنظر: مصطفى الغديري، "جوانب من الديموغرافية التاريخية من خلال رحلة المغامر الاسباني خواكين غاثيل للمغرب (١٨٦١—١٨٦٥)" ضمن: الديموغرافيا التاريخية في أدب الرحلة، **كنانيش**، العدد ٣، صيف-خريف ٢٠٢١، ص.٩٧. الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، ص.٣٨٥.

(٧٥) **"فقطع أشجارها عقوبة لهم"**، بهذه العبارة يتحدث الضعيف الرباطي عن حملة محمد بن عبد الله، وهو لا يزال خليفة لأبيه، في اتجاه قبائل الأخماس وشفشاون، **تاريخ الضعيف**، ص.١٦٠. أنظر أيضا حالات أخرى، ص.٣٤٧.

(٧٦) محمد بن محمد الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي (ت.٥٦٠هـ/١١٦٥م)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، جزآن، تحقيق مجموعة من الباحثين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ج.١، ص.٢٤٩. إبراهيم ابن الحاج النميري (ت. بعد ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ١٩٩٠، ص.٤١٩. الضُّعَيِّف، **تاريخ الضعيف**، صص. ١٨٤-١٨٥-١٨٨-٢٠٢-٢١٦-٢٣٤-٢٦٣-٣٠٦-٣٢٤. ولم تسلم ملاحات اليهود من الهدم والتخريب، لأسباب مختلفة، كفعل اليزيد(١٨٩٠-١٨٩٢م) بملاح تطوان ومراكش، ن.م، صص.٢٠٢-٢٣٤-٣٦٦. أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت. ١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية**، القسم ١، ٩ أجزاء، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج.٥، ص.١٤٣.

(٧٧) ن.م.، ص.١١٩-١٩٤-١٩٥-١٩٦.

(٧٨) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص.٣٢.

(٧٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٨٠) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٠٧.

(٨١) ابن عذاري، **البيان**، قسم الموحدين، ص.٣٥٤.

(٨٢) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص.٦٢.

(٨٣) يتحدث بعض المختصين عن تراجع البحرية المغربية والإسلامية بفعل حدوث نقص في الخشب نتيجة استنزاف الغابات، مصطفى نشاط، "قضايا من التاريخ الاقتصادي للمغرب الوسيط من خلال الأرشيف الجنوي"، **أمل**، العدد ٤٣، ٢٠١٤، ص.٦٠.

(٨٤) محمد الصغير الإفراني(ت. بين ١١٥٤هـ/١٧٤٢م-١١٥٧هـ/١٧٤٥م)، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تصحيح هوداس، مطبعة مدينة انجي، ١٨٨٨، ص.١٠٣.

(٨٥) أبي سمرا، "برودیل"، ص.١٨٧.

(٨٦) أنظر تفصيلنا في الموضوع، حسن بودلال، **جوانب من تاريخ الحيوان في مغارب ما قبل الاستعمار**، بحث لنيل شهادة الماستر، تخصص تاريخ، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، السنة الجامعية ٢٠١٤-٢٠١٥، (مرقونة)، ص.١١٩.

(٨٧) **روض القرطاس**، صص.٢٨١-٢٨٢. **الذخيرة السنية**، ص.٢٥.

(٨٨) **العبر**، ج.٦، ص.١١٦.

(٨٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.١٣٨.

(٩٠) أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالقي الأندلسي (ق.٦هـ/١٢م)، **في آداب الحسبة**، تحقيق ليفي بروفنسال؛ ج.س. كولان، منشورات معهد الدراسات العليا المغربية، المجلد ٢١، مطبعة إرنست لارو، باريس، ١٩٣١، ص.١٦. عبد الواحد المراكشي (ت. ٦٤٧هـ/١٢٥٠م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣، ص.١٤٣. أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي (ت. ٧٠٣هـ/١٣٠٣م)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، ٦ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.١، ٢٠١٢، السفر ٨، ج.٥، ص.١٢٠. الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٢٩٨.

(٩١) كانت القبائل البدوية تفرق بين الغزو والسرقة، وتعتبر الغزو محل افتخار لأنه تعبير عن قوة وشجاعة القبيلة وقدرتها على اكتساب رزقها بحد السيف، جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (٩-١٠م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص.٢٩٧.

(٩٢) ابن الأثير، **الكامل**، ج.٨، ص.٣٢٨. أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٣٣ جزء، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤، ج.٢٤، ص.١٤١.

(٩٣) السبتي، **بين الرباط**، ص.٢٩٠، اعتمادا على سيگونزاك.

(٩٤) ماكس أوبنهايم وآخرون، **البدو**، ٤ أجزاء، ترجمة ميشيل كيلو؛ محمود كبيبو، تحقيق وتقديم ماجد شُبّر، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، لندن، الطبعة ٢، ٢٠٠٧، ج.١، ص.٨٩.

(٩٥) ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص.٢٨٢.

(٩٦) النويري، **نهاية الأرب**، ج.٢٤، ص.١٤٢.

(٩٧) ابن خلدون، **العبر**، ج.٦، ص.١١٦.

(٩٨) تيتاو، **الحرب والمجتمع**، ص.٢٠٦-٢٠٧-٣٢٦.

(٩٩) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج.١، ص.٦٣.

(١٠٠) عبد الواحد كنفاوي، ""اللهطة" ... القاسم المشترك"، جريدة الصباح، شوهد في: ٢٤-٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/2CegO3c.

(١٠١) الزياني، **البستان الظريف**، ص.٣٢٨.

(١٠٢) الضعيف، **تاريخ الضعيف**، ص.٢٢٢.

(١٠٣) أنظر على سبيل المثال لا الحصر: الفشتالي، **مناهل الصفا**، صص.٥٢-١٩٣؛ الزياني، **البستان الظريف**، صص.١٧٨-١٧٩؛ الضعيف، **تاريخ الضعيف**، صص.١٩٤-٢٢٢.

(١٠٤) "أعمال تخريب طالت أسطول الحافلات منذ أول أسبوع عمل، رشق بالحجارة وتكسير للزجاج"، شوهد في: ٢٠-٤-٢٠٢٠، في: https://bit.ly/30PrNdK.